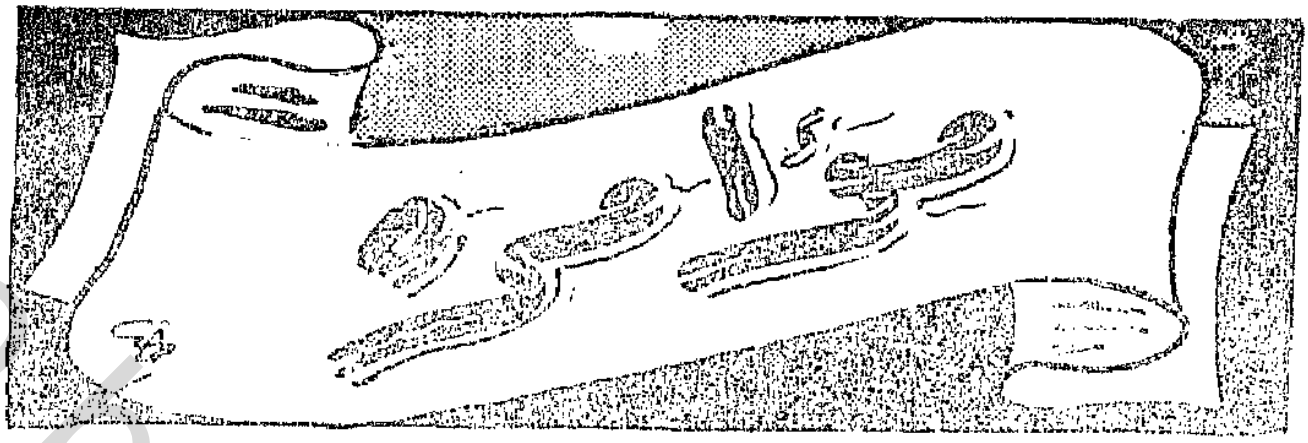

نحن فى سنة ۱۸۲۰ فى بقعة هادئة منعزلة على مقربة من شاطىء النيل ، ورهط من الضباط التلاميذ يقوم بتمريناته اليومية الصباحية وراء اسوار ثكنة رحبة ، تحت وهج الشمس اللاذعة فى ضواحى اسوان ..

كان هذا الرهط نواة المدرسة الحربية الاولى التى انشأها محمد على باشا الكبير ، لتخريج ضباط مصريين ، يكونون نواة جيش مصرى صميم

ان طريق محمد على وهو يؤسس لذلك الملك الكبير الذى انشأه فى مصر منذ ان دانت له ولايتها سنة ۱۸۰٥ ، لم يكن مفروشا بالورود ...

ولم يكن يومئذ يجلس على عرش ، ولكنه كان يجلس على برميل بارود ...

لقد كان جيشه التركى المؤلف من مرتزقة الاتراك والارناؤوط ، مفطورا على التمرد والفوضى والعصيان ..

وكان المماليك اصحاب السلطة المسلوبة ، لا يفتأون ينثرون فى طريقه الاشواك بمعونة الانجليز

وكان الاتراك الذين يحكم باسمهم مصر ينفسون عليه رسوخ قدمه فى مصر على غير ارادتهم ، ويتربصون به الدوائر

obeikandl.com

وكان الانجليز يدسون له عند الباب العالى ، ويوغرون عليه صدر السلطان ، ويغرونه بتأييد صنيعتهم محمد بك الالفى ، شيخ المماليك ، ليخلص لهم على يده حكم وادى النيل

وعلى الرغم من ان زعماء الشعب وعلماء الازهر ، كانوا يؤيدون الوالى الجديد مخلصين، فإن الشعب نفسه لم يكن يدرك بعد ، الدوافع الحقيقية التى تجعل رجلا من البانيا كمحمد على يسعى بالنهوض بوطنهم الذى مزقته الحروب والدسائس والشهوات

من اجل ذلك كله انشأ محمد على مدرسته الحربية الاولى فى اسوان بمنجاة من اعين الرقباء ، وبمعزل عن المسرح السياسى المفعم بالاعاصير والانواء ، واسلم قيادتها للكولونل سيف احد ضباط نابليون ، الذى اجتذبته فتنة الشرق فجاء الى مصر ، واسلم ، وتسمى باسم سليمان بك ، وعرف بسليمان بك الفرنساوى عند الناس ..

* * *

كان محمد على مشفقا من نتائج هذه التجربة فى وسط هذا الجو الملبد بالغيوم ... وكان سليمان الفرنساوى - الذى انعم عليه محمد على بلقب الباشوية فيما بعد - يدرك تمام الادراك ان هؤلاء الشبان ، ذوى الوجوه النحاسية الجياشة بالقوة والصرامة والشباب ، ماخوذون من احضان آبائهم قسرا ، وانهم مازالوا حتى اليوم فى ريب من امر الجيش الذى يؤلفه محمد على ، لايدركون أيكون حربا لمصر أم عليها ؟ أيكون أداة حقيقة للاستقلال الذى ينشدونه ، ام يكون نيرا جديدا يوضع فى عنق وطنهم الذى الهب عنقه حز الاغلال ..

وكان ابراهيم باشا القائد الاعلى لجيش محمد على يتردد على هذا المعسكر السحيق خفية ، ليرى اشبال عرينه المستقبل ،

فيقابل من هؤلاء الاشبال بشيء اشبه بالوجوم منه بالحقاود والتهليل ...

ادرك سليمان باشا هذه العواطف المضطرمة فى نفوس تلاميذه ، ورأى أمواجها المزبدة تتلاطم فى عيونهم البراقة ، وفى حلقاتهم الهامسة فى اوقات الفراغ فراح يحدثهم عن مشاريع محمد على ، وعن آماله لمصر ، وعن مصر نفسها وعن مجدها الغابر التليد ، وامكان بعثها حرة ، قوية ، قهارة ، على ايدى ابنائها من جديد ...

ولكن هذه الاحاديث الطلية لحارة من رجل فرنسى ، عن رجل البانى ، كانت تقابل من هؤلاء الشبان المصريين بآذان صماء ، واحيانا بابتسامة استهزاء لم يحاولوا ان يكتموه

انهم يجودون لمصر بالدماء ولكن هيهات ان يجودوا بقطرة منها للغرباء

واصطدمت حماسة سليمان باشا الفرنساوى وعناده بحماسة اقوى منها وعناد اصلب فى قلوب هؤلاء الفراعنة الصغار

ولكن سليمان الفرنساوى لم ييأس ..

لقد كانت ثقته فى عراقة الوطنية المصرية فى نفوس هؤلاء المصريين الشبان أكبر من ان تزعزعها تلك النظرات المتمردة عن طيش وهذه البسمات الساخرة عن جهل مطبق بآمال العاهل الجديد لمصر والمصريين ، وهذا الهمس المريب الذى كان يملأ الجو من حوله بمثل صفير العاصفة المقتربة فيقابله بمنتهى الهدوء والثقة والايمان

* * *

وراحت المؤامرة تبيض وتفرخ بين الضباط التلاميذ فى الخفاء وأخذت العهود والمواثيق تتردد فى عنابر النوم وعلى موائد الطعام

واصبح اغتيال سليمان الفرنساوى موضعا للهمس بين الشفاه والآذان

وفى ضحى هذا اليوم القائظ من صيف سنة ١٨٢٠ كانت المؤامرة قد بلغت اشدها ، فلم يكد يدق النفير للتمرين على الرماية وضرب النار . . حتى أحس سليمان الفرنساوى فى اعين تلاميذه بنذير شر قريب .

ولكنه لم يجبن . .

ووقف على مقربة من الهدف وامر اول تلميذ فى الصف باطلاق النار . . فأصابه اصابة محكمة

وامر الثانى ففعل كذلك ، وتعددت اصابة الهدف بشكل يدعو للاعجاب . .

ولكن سليمان باشا لم يستسلم بل أخذ يدافع عن نفسه بجذع سيفه دفاع الابطال

ثم امر السادس بالضرب ، فسدد البندقية واطلق النار..

واحس سليمان باشا بأزيز الرصاصة يكاد يخترق رأسه وشعر بنقط دافئة تتقاطر ببطء على عنقه وادرك بالغريزة ماهناك ولكنه لم يرفع يده الى اذنه ، ولا حاول ان يحقن الدم النازف، بل لم تطرف عينه ، وحاول بكل جهد أن يصنع ابتسامه طيبة وضعها على شفتيه ، فجعلت لوجهه الاشقر الجميل تحت جبينه الواسع ، وهالة شعره الاصفر ، منظرا مهيبا لاب حكيم يمر مر الكرام على هفوات الطيش من بنيه

ثم نادى بصوت واضح مهيب يمتزج فيه الحزم بالحنان :

ـ نكلاوى .. انت لم تحسن اصابة الهدف . انك سهرت بالامس كثيرا تستذكر الدروس، اطلق من جديد ، وحاول ان تصيب . ان الأم قد تغفر لبنيها البواسل كل شيء الا ان يخطئوا فى اصابة الهدف القريب ..

واستدار على عقبه ، حتى واجه تلميذه تماما ، ثم نشر له صدره ، كأنما يقول له « ان هدفك هنا فلماذا تخطىء التسديد . .

ورفع النكلاوى بندقيته وأطلق

وأصاب هدف التمرين فى هذه المرة .

وأحس سليمان باشا فى جو الانتظار والترقب المحيط به ، بقطرات دافئة تسيل على وجنتيه

لم تكن قطرات من الدم ، ولكنها عبرات الأب الذى رأى بعينه عودة ولده العاق الى السداد والرشاد ...

* * *

ان هذا الدرس ، خنق المؤامرة حينا ولكنه لم يقتلها ...

نعم ان النكلاوى وأكثر زملائه قد قضوا عدة ليال يؤرقها الخجل والندم وتوبيخ الضمير ، ولكن الايام لم تلبث ان شفت جسم المؤامرة من هذا الجرح العميق ...

وعاد الهمس يتردد بين العنابر ويدور ...

وعادت المؤامرة تغلى فى الظلام وتفور ...

ولكن الهمس والتآمر . فى هذه المرة كانا فى دائرة أضيق . وفى نطاق أصغر ...

وجاء اليوم الذى اتفق فيه المتآمرون على اغتيال الفرنسى الغريب ...

وكان الدرس فى هذه المرة فى الشيش ..

ولم يكد سليمان الفرنساوى يلقى الامر بالبدء فى النزال ، حتى وجد اكثر من سنين سنانا مسددة الى صدره ...

وكانت مفاجأة للنكلاوى وزملائه الذين مست قلوبهم شجاعة قائدهم وتسامحه الكريم ...

فسلوا هم الاخرون سيوفهم ، ووقفوا دونه سدا متهيئين للنضال ....

ونظر سليمان باشا الى هؤلاء وهؤلاء نظرته الابوية الباسمة ثم غرس سيفه فى الارض ، واتكأ عليه بكلتا يديه . وقال فى صوته الذى اختلط فيه العزم بالحنان :ـ

ـ لا ... لا ... ليس هكذا ... ان جنود مصر ينبغى الا يدنسوا أيديهم بدم الغدر والغيلة والا يحارب بعضهم بعضا على الاطلاق . وان أردتم قتلى فحبا وكرامة ... بارزونى واحدا واحدا فان قتلتمونى ، فقتلتمونى فى معركة شريفة ، والا كان عليكم أن تنتظروا حتى تسيطر أيديكم تماما على مقابض السيوف .

وحدثت ضجة فأمر سليمان باشا حماته أن يغمدوا سيوفهم ويرجعوا الى الوراء ، ثم التفت الى مهاجميه ونادى :ـ

ـ صالح .. تعال أنت .. انك من خير زملائك فى الشيش

وتلفت المهاجمون بعضهم الى بعض ، وعبرت نظراتهم المحرجة عن الشعور الذى طاف بنفوسهم . ان من الجبن النكول عن هذه الدعوة الكريمة الى القتال الشريف

وأغمدت السيوف ، وبرز صالح من الصف ، متهيئا للنضال

وأخذ سليمان باشا كلماتمكن من خصمه ، يلفته الى موضع الخطأ حتى اذا أطار السيف من يده بعد عدة دقائق ، ضحك له ضحكته الابوية ، ثم صافحه ، وقال له : —

— لم يزل أمامك ثلاثة اشهر

ونكس صالح رأسه ، ومضى الى موقفه فى الصف ...

وأخذ مكانه البحراوى ، وكان زعيم المؤامرة ، وكان شرر الغضب يتوثب توثبا من عينيه ، فوقف وجها لوجه أمام أستاذه الذى دعاه للبدء بالهجوم ...

وانتشر السكون على الحلبة ، لايقطعه الا صليل السيفين يتقارعان ...

وأحس سليمان الفرنساوى أنه فى هذه المرة أمام خصم عنيد ... وراح يحاوره ويداوره بكل ما أوتى فى المسايفه من فن ومران ولكنه كلما فتح له بابا فى النزال سده ، وتعلقت قلوب الشهود جميعا بعيونهم ، وخرج الامر عن مؤامرة اغتيال غادر الى حلبة نضال شريف ...

وطعن البحراوى خصمه طعنة توقاها سليمان باشا بسيفه ، فبترت نصفه وأطارته فى الهواء ، واندفعت من أفواه التلاميذ جميعا صيحة اشفاق ...

ولكن سليمان باشا لم يستسلم وأخذ يدافع بجذع سيفه عن نفسه دفاع الابطال .

وقد استطاع ان يرد هجمات خصمه ولكن الى حين ... فقد أستولى عليه التعب فى النهاية وتصبب جسده بالعرق ، ثم أحس بأنفاسه تضيق من طول الكر والفر والنزال ، ولكن عينه بقيت وحدها تبرق اعجابا باستبسال هذا التلميذ العنيد .

ثم رمى بقية السيف من يده فجأة ، وكشف صدره لخصمه وأشار الى القلب : —

— اضرب هنا .. ان زرعى لم يخب ، وسأموت سعيدا بهذا الحصاد ! !

* * *

ولكن البحراوى لم يضرب ..

لقد رمى السيف من يده واندفع باكيا ، الى حضن أستاذه الشجاع

واذا دموع التلاميذ تسابق هتافهم فى غسل الاوضار التى سممت نفوسهم ظلما نحو هذا الاب العظيم ..

وفى اليوم التالى زار ابراهيم باشا المعسكر ، ولاول مرة قابل التلاميذ الضباط قائدهم الى النصر فى المستقبل بهتافات حارة صادرة من القلوب ..

وبعد ثلاث سنوات كان ابراهيم باشا يقتحم بهؤلاء الاشبال البواسل جبال الاناضول ، وسهول الخليج الفارسى ، ويدق أبواب الاستانة ، ويصيب رأس أوربا يومئذ بالدوار !